الخدمة الاجتماعية في الإسلام

للأستاذ لبيب السعيد

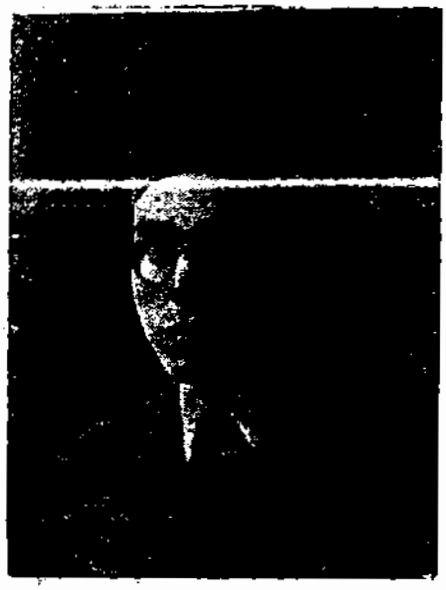

ألفت مصر بالها أخيرا إلى الخدمة الاجتماعية، وشرعت تستعيرها في الطب لأدواء الأفراد والجماعات، وقد استجدت لهذا الفن في مصر معاهد ودراسات يلاحظ من يراقبها أنها مكبة على إنتاج الغرب في هذه الناحية تنقل منه وتترجم عنه. ولا حرج في هذا لو أنه كان مصحوبا بلفتات جادة غير بعيدة إلى أصول تلك الخدمة في ديننا وفي تاريخنا، حتى تكسب الخدمة الاجتماعية نفسها حياة قوية تمدها بها المبادىء الإسلامية الصريحة، وحتى لا يستقر في ضمير الشباب خطأ أن هذا الفن مستورد أيضا من الخارج، وحتى تتفادى نتيجة مرجحة هي أن يتنكر لتاريخنا الاجتماعي أو لا يثق به من وقفوا على تفوق الخدمة الاجتماعية الحديثة في الغرب، وجهلوا في الوقت نفسه أو لم يفهموا ما في الإسلام من المبادىء الاجتماعية السامية.

لم يقف الاسلام عند تقرير التوحيد وبث الإيمان وتنقية العقائد وفرض العبادات وسن الأحكام، ولكنه عالج النظم الاجتماعية كلها، فأعلى شأن الكرامة الإنسانية، وأرسى القواعد للحياة البيتية الصالحة، ووصل الأرحام، وبسط يد الحنان للصغير وغمر اليتامى والضعفاء والمرضى بزاخر من الرحمة والرعاية، وسن التأسية والتسلية، وكان بتعاليمه وسير رجاله دعوة دائبة إلى تلمس القوة والجمال للنفس والعقل والبدن على السواء، وأولى الشؤون الاقتصادية عنايته السددة وتنظيمه الراشد، ودعا إلى كل فضيلة وعادى كل رذيلة.

فعل الإسلام كل هذا بنصوص صريحة يظاهر بعضها بعضا وتصدقها أفعال الرسول وصحبه، فاستطاع المسلمون الأولون في نور هذه النصوص والأعمال وفي كريم نهجها أن يوفوا على الغاية من النجاح الاجتماعي بقدر ما سمح لهم زمانهم.

لم يتناول التنزيل كل مبادىء الخدمة الاجتماعية بالبيان المفصل ولكن المبادىء التي وردت فيه مجملة لم تقصر عن مدى التفصيل وقد تناولت السنة بأنواعها القولية والفعلية والتقريرية بالشرح والإتمام هذه المبادىء، كما هو الشأن في كثير من أمور الدين ثم كان التطبيق الرائع لتلك المبادىء على أيدي المسلمين في عصور مختلفة، فأصبحت بعض أخلاقهم بل بعض حياتهم، وبدت في تاريخهم وضاءة، لها نورها اللامع ولونها المتميز.

ولقد نجد أسماء خدمات اجتماعية تؤدى في زماننا ولا يعرف بعضنا لها نظيرا في النظم الاسلامية، ومثل هذه الخدمات في الأغلب موجودة في هذه النظم بالروح والجوهر وإن لم توجد بالإسم والسمات العصرية. وفي الوسع إذا درسنا الأصول والنظم التي وضع الإسلام أساسها، وإذا عرفنا الاشباه، وقسنا الأمور بنظائرها وانتفعنا بما لفقهاء المسلمين من تفصيلات مبينة واستدلالات صائبة وتقريرات منطقية، في الوسع عندئذ أن نقرر أن أنفع وأحدث ما استجد من فنون الخدمة الاجتماعية هو أصيل في الاسلام كل الأصالة.

يقول القرآن في اختصار: «إنما المؤمنون إخوة» «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» فتجعل كلتا الآيتين الوجيزتين أمهات مبادىء الخدمة الاجتماعية من تكافل ووفاء ورحمة ومعاونة شاملة.

ويؤكد الرسول هذا المعنى في لفظ قليل. «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» فلا يبقى في معرض الخدمات التي يبذلها المؤمن للمؤمن معنى من معاني الخدمة إلا تزاحم على عقل المتفكر

ومن كلام النبوة: «ابغوني الضعفاء فانما ترزقون بضعفائكم» فلا يبقى ضعيف سواء في حاله أو في بدنه أو في نفسه إلا ويتجه اليه كل مقتف أثر النبوة بالخدمة الاجتماعية بمعناها الرحيب: يتفقد حاله ويحفظ حقوقه ويحسن اليه ما وسعه الإحسان.

والمسلمون حين يتفهمون أصول الدين تتفطن طبائعهم لهذه الخدمة ومن الأمثلة أن النبي يقول: «الدين النصيحة» فيقول

بعض أصحابه : لمن ؟ فيقول : «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» فيرى أحد الشراح أن نصيحة عامة المسلمين تنتظم « تعليمهم ما يجهلون من دينهم وعونهم عليه بالقول وبالفعل وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع اليهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، برفق وإخلاص والشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم وأن يحب للرء لهم ما يحب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه ، والذب عن أموالهم وأعراضهم ونشر ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحثهم على التخلق بجميع ماذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط هممهم إلى الطاعات ... الخ»

وسير كثير من الشخصيات الإسلامية تملأ من الناحية الاجتماعية صحائف تنطق بأنهم كانوا خداما اجتماعيين من الطراز الأمثل .

فعمر بن الخطاب مثلا إذ يعلم الناس في أماكنهم ويخلف الغزاة في أهلهم ، وإذ يتعاهد العجوز العمياء المقعدة فيأتيها في بيتها بما يصلحها ويخرج عنها الأذى ، وإذ يسمع بكاء طفل في الليل فيتوجه نحوه غير مرة ، ويسأل أمه أن تتقي الله وتحسن اليه وإذ يكتشف الارملة وأبناءها الجياع ، فيحمل اليهم الدقيق والشحم ويطبخ لهم ويطعمهم ، عمر إذ يفعل هذا خادم اجتماعي يفهم واجباته ويؤديها في غير سطحية ولا قصور .

وإذا لم تكن قامت في الإسلام بصفة مطردة ودائمة هيئات اجتماعية تقصر رسالتها على الخدمة الاجتماعية على النحو المتبع الآن فان الإسلام جعل هذه الخدمة ضمن الواجبات الدينية العامة التي تضيق عنها الجمعيات المحدودة وإنما تقوم بها الأمة كلها متكافلة متضامنة . ولهذا ليس من حق أحد أن يقول إذا سيقت له شواهد في الخدمة الاجتماعية الإسلامية مصدرها فرد أو أفراد إن الأمر مخصوص بهم

ولو قد درست وثائق الأوقاف الإسلامية لوجدنا أفانين شتى الخدمة الاجتماعية تجل عن الإحصاء وكلها تستهدف الإحسان إلى الفقراء والضعفاء ، لأنها بمقتضى الفقه لا تجوز إن كانت على الأغنياء وحدهم . والكثير من اتجاهات الواقفين المسلمين هو آية إدراك اجتماعي عال . وما أجدر تلك الوثائق بدراستنا على نحو عميق لنستوعب كل غاياتها وندرك كل دلالاتها الاجتماعية .

والحق أن على المختصين أن يجلوا ما انبهم من تاريخ الخدمة الاجتماعية في الإسلام ، فيبسطوا القول في كيف كافح هذا الدين الفقر ودرأ أسبابه ومسبباته ، وكيف سبق إلى جعل الزكاة من قواعده قبل عشرة قرون ونصف قرن من قانون الفقر في انجلترا الذي جعل البر واجبا بنظمه التشريع . وكيف سبق المسلمون إلى تعيين الموظفين وإنشاء « ديوان البر والصدقات » وهو بمثابة وزارة الشؤون الاجتماعية الآن ؛ و« ديوان الحبوس » الذي كان ينهض بأعمال وزارة الأوقاف ، فنظم الاحسان على نحو لم تصل اليه النظم الحديثة إلا متأخرا ، وكيف أن نبي الإسلام سبق إلى نظام بحث حالة السائل الذي هو أنفع ما تقرره الخدمة الاجتماعية الحديثة . وكيف يدق الإسلام ويعلو في تعريف المسكين وكيف يحفظ الوجوه عن المسألة ؛ وكذلك كيف يكافح التسول أشد كفاح ، ويحبب في العمل ، ويعمل على اناحته المتعطلين ، ويرى تنشيطاً للحياة الاقتصادية عدم حبس المال عن الاستغلال ، فيسوغ إقراض مال الوقف والغائب واللقطة بل مال اليتيم ومال المسجد ، وكيف كان تحديم المتعطلين الغرباء من التقاليد الاسلامية الراسخة وكيف استولى المسلمون على الأمد من فضيلة اكرام الغرباء ، وكيف عنوا باقامة السبل والأحواض لسقاية العطشان ، وسبقوا الى اقامة المطاعم للفقراء ، فمن كان من هؤلاء يمنعه الحياء من الجلوس الى الموائد العامة أرسل الطعام اليه في داره .

ومن حق الدراسات الاجتماعية الحديثة أن تعنى أن الاسلام في عطفه على الضعفاء يلتفت إلى الصانع لفتة بر ورحمة ، فيوصي بمعاونته . وكذلك يفعل مع الأخرق فيثبت عطفا مبصرا .

أما اليتامى فبره بهم يجول في أسمى الآفاق إذ يمنحهم عناية بالغة الرقة والحرارة . ثم هو بعد ذلك يرى أن يزول اسم اليتيم عمن بلغ الحلم . ولعل من مقاصد هذا حكمة تربوية هي ألا يظل اليتيم يتلقى عطف الناس فيعجزه في مستقبل أيامه أن يواجه الحياة من غير سناد .

والخدمة الاجتماعية التي تهدف الى خدمة الزواج تبذل في النظم

(١) النووي : شرحه على صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٧ . ٣٨ . ٣٩

الإسلامية الى أبعد مدى . والمسلمون يعدون يد العون لراغبي الزواج بعامة والعوانس بخاصة . وقد كان عمر بن عبدالعزيز يعدل الحاجة الى الزواج بحاجة المدين إلى سداد دينه وحاجة المسكين وحاجة اليتيم . ومن الأوقاف الاسلامية أوقاف تعنى بتجهيز العرائس الفقيرات إلى أزواجهن .

وعنى الإسلام بالأيم ، فدعا إلى الزواج منها ، وحبب فى السعى على الأرملة صيانة لها فى حياتها وشرفها .

وكفل الإسلام اللقطاء ، وصان لهم كل حقوقهم ، وسهر على إنبائهم نباتا حسنا .

والإسلام يمنح المدين رحمته ، بانظاره ان كان معسرا ، ويحبب فى التصدق عليه ويجعله من المصارف المحددة للزكاة .

وتهب النظم الإسلامية التفاتها وعطفها للذين لا أهل لهم ولا عائل ، ولا طاقة لهم بعمل ، فالزوايا والرباطات والخانقاهات كان يقيمها أغنياء المسلمين مثابة لهؤلاء ، وقد كان بعض الرباطات « للنساء المنقطعات أو المطلقات أو المجاورة الأرامل والعابدات »[١]

وتجهيز الموتى ودفنهم من أعمال البر المقدمة عند المسلمين .

وفى ميدان الخدمة الاجتماعية الطبية ، سبق الإسلام المدنية الحديثة إلى الحمل على أساليب العلاج التى لا سند لها من المعرفة ، وقرر مسؤلية الطبيب الجاهل.

والنظافة عند المسلمين عبادة ، بل هى فاتحة عدة عبادات لهم وهى بالضرورة من قوانين حياتهم اليومية. وقد دعت السنة إلى نظافة طرق الناس وكل مكان يرودونه أو يأوون اليه ، وحفلت البلاد الاسلامية بالحمامات على تحولات ، فمصر الفسطاط مثلا كان بها الف ومائة وسبعون حماما [٢] ، وبغداد كانت عدة الحمامات بها فى وقت ما نحو ألفى حمام[٣] ، وقرطبة كان فيها تسعمائة حمام[٤].

ومما يصح أن يهدى إلى دراساتنا الاجتماعية أن النظم الإسلامية توقى الناس الأمراض المعدية ، وأنها تولى ذوى العاهات التفاتا خاصا ، فالعميان أجرت عليهم الأرزاق وعينت لهم من يقودهم والمقعدون خصصت لكل منهم خادما .

ومن دلائل النضج الاجتماعى أن تظفر السجون فى البلاد الإسلامية فى زمان مبكر بعناية طبية فيخصص لها الأطباء .

والعناية الطبية فى المحيط الاسلامى لا تقف عند الأجساد ، بل تقدر الأثر البيئى وتقدر حالات النفس ، قالوا فى التطبيب : « وإن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بهـــا وبالحركة والسكون والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية من الغم والحزن والغضب والهم .. إلخ »[٥]

ولقد سبقت المستشفيات الاسلامية إلى العناية بالمريض نفسانيا وهى العناية التى تحمل بها الخدمة الاجتماعية الحديثة ، سبقت تلك المستشفيات إلى ذلك على نحو متفوق ، فمثلا كان المؤرقون من المرضى بمارستان قلاوون بالقاهرة يتسلون بسماع الموسيقى والغناء والقصص ليطرحوا الهموم والأوصاب ، وكان الرقص والروايات المضحكة تعرض على بعض المرضى لعلها تفيء عليهم فى محنتهم الغمة والإيئاس .

وتغذية المرضى وكسوتهم فى المستشفيات الاسلامية كانتا تظفران بأوفى عناية .

والفقه الاسلامى لا يغفل عن أثر الاستجمام والراحة فى تحقيق الصحة . فهو يتيحهما لكل عامل بل يجعلهما حقا لا ينبغى أن يترعه صاحب العمل ولو كان أجيره من دين آخر .

وقد سبق المسلمون إلى العناية بالناقه ، فكان يعطى مالا ينفق منه ربثما يقوى على العمل ، فضلا عن كسوته . وقد عرف المسلمون الاسعاف الطبى الاحتياطى .

وخدمة الفرد عن طريق الجماعة كانت مما عرف المسلمون . والطرق الصوفية فى بعض مناهجها تستهدف تلك الخدمة .

وقد مارس المسلمون الرياضة البدنية وأعظموها . يقول ابن طباطبا مثلا عن فوائد الصيد : « ... ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج »[٦]

وقد عرفت للمسلمين ألعاب جمعية خاصة ، ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه — كما يبدو من استقراء أخباره — كان رياضى السيرة .

والإسلام يتيح لأهله التسلية البريئة ، ويروى عن النبى أنه قال . « لهوا والعبوا فانى أكره أن يرى فى دينكم غلظة »[٧]،

(١) على مبارك : الخطط التوفيقيه ج ١ ص ٨٩
(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطه عقد الأمصار حـ ٤ ص ٤٢
(٣) المقريزى : خططه حـ ١ ٨٠
(٤) المقرى : نفح الطيب حـ ٤ ص ٣١٥
(٥) المسعودى : مروج الذهب حـ ٤ ص ٣٢
(٦) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانيه ص ٥٥
(٧) المناوى : فيض القدير حـ ٢ ص ١٦١